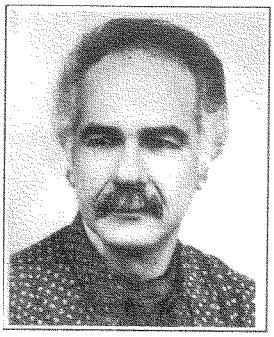

عبد اللطيف اللّعبي

أنوار الكهف

ترجمة: محمد الشركي

سأمْسِكُ بِيَدِكِ ونُبارِحُ الكَهْفَ. أتَخَيَّلُكِ عَديمَةَ اللَّوْنِ. لا أعْرِفُ إنْ كُنْتِ رَجُلاً أو امْرأةً. لكنَّ جَمْرَةَ الانْدِهاشِ والشَّهْوَةِ في عينيكِ. لَمْ تتكلَّمْ مُنْذُ اكتشَفْنا نَفْسَيْنا جَنْباً إلى جَنْبٍ في هذه العَتَمَةِ الّتي لا تَنْتَسِبُ إلَى اللّيْلِ. كانَتْ تَلُفُّنا بِحُجُبِها الغامِضَةِ والحامِية. كُنّا نُحِسُّ حَريرَها حتّى نَغْفُوَ. وحينما كُنّا نَسْتَيْقِظُ، كانَ فَمانا يَتَحلَّبانِ لِمُجَرَّدِ لَمْسِها. لَقَدْ عِشْنا هُنا حَقّاً طَوالَ ذَلِكَ الزّمن دُونَما حاجَةٍ سِوَى حاجَتِنا لِئَلاَّ نَفْقِدَ بَعْضَنا. تِلْكَ كانَتْ صَلاتُنا. طعامُنا وشَرابُنا. قصيدتُنا الصّامِتَةُ.

هَلْ كانَ ثَمَّةَ نَهْرٌ في الجِهَةِ الأُخْرى للجدارِ؟ نَهْرٌ حَقيقيٌّ ذو مَنْبَعٍ ومَصَب، وبِهِ قَوافِلُ عائِمَةٌ، ونداءاتٌ مِنَ الضَفّةِ إلى الأُخْرى، وضحكاتٌ طُفوليةٌ، وصَيّادون يَرُومونَ التّأمُّلَ أكْثَر مِمّا يهمُّهُم مَغْنَمٌ غَيْرُ مَضْمُون. هَلْ كانَ نَهْراً أمْ أنّهُ مَجْرَى الزّمن لا غَيْر؟ لكِنْ أيْنَ كُنّا في ذَلِكَ المكانِ الّذي لَمْ نَعُدْ بِهِ حالَما قرّرنا مُبارحَتَهُ؟

سَأُمْسِكُ بِيَدِكِ. وَعِنْدما تَتلامَسُ أصابِعُنا، ستتطَايَرُ شراراتُ الحَجَرِ إلى أنْ تَبلُغَ القُبّة. وَسَيَنْبَثِقُ مِنْ هذا المَدَى بَصيصُ النّورِ الّذي سيَهْدينا إل المَخْرَج. سيكونُ ذلِكَ هُوَ سِمْسِمنا ، الإشارة المُعْطاة لكيْ يتسلَّمَ نَفادُ صَبْرِنا الزمام. وبَعْدَ عَهْدِ الهِجْرانِ نَزور نَفْسَيْنا مِنْ جَديدٍ. سَنَدْفَعُ الصَّخْرةَ ونكْتَشِفُ عُرْيَنا.

سيكونُ العالَمُ المُشْرَعُ أمامَنا غريباً وأليفاً في آن. سَنَراهُ كما لَوْ غادَرْناهُ مُنْذُ ألْفَيْ عام، مُنْذُ قَرْنَيْنِ أو رُبّما مُنْذُ يومَيْن.

سَيَستوقِفُنا هَذا اللُّغْزُ. سَنَلْتَمِسُ الفَهْمَ. وسيكونُ الاقْتِلاعُ الّذي حَمَيْنا نَفْسَيْنا مِنْه. لأنّنا لَمْ نُرِدِ النُّمُوّ بَعيداً عَنْ عُمْرِنا. لأنّنا لَمْ نُرِدِ التّخلّي عمّا يَنْبَغي تَسْميتُه «براءتنا».

سنَبْدأُ من النّهاية.

وماذا لَوْ تَعلّقَ الأمْرُ بِيَوْمَيْن فقط؟ السُّؤالُ لاذِعٌ. أيّةُ مِحْنَةٍ لِقَلْبَيْنا المُصابَيْنِ بِجُنونِ المُعَذَّبين! يَوْمانِ فَقَطْ أوْ بالأحْرى لَيْلَةٌ في أعْقابِ الثّانِيَةِ، حتّى تُدْرِكَها قَبْلَ أطْياف الفَجْرِ، فَتَنْتَزِعَ مِنْها هِلالَها وهضبة نجومِها المُكْتَسَبَةِ بالرّأفَة.

عَيْنانا مَعْصُوبتان. ظُلُماتٌ مُشْتَبِكَةٌ بِأخْتِها الظُّلمات. إنَّ مَهارَةَ أشْباهنا البَعيدين لا حَدَّ لها عندما يتعلّقُ الأمْرُ بِعَزْفِ سمفونية العذاب.

يَدانا مَغْلُولتانِ خَلفَ ظَهْرَيْنا. «تَمَدَّدْ هكذا أيُّها الشُّجاع. الوَضْعُ مُريحٌ كما لَوْ كُنتَ في بَطْنِ أُمكَ. الولادةُ تَسْتَحِقُّ العَناء. لا يدخُلُ المَرْءُ إلى العالَم كما لو كان طاحُونةً.. طاحُونة، طاحُونة، هي هي، ها ها. دون كيشوت. مُؤخّرتي».

حَوْلَنا المتاهَةُ الّتي رَسَمها سَيّدُ الغيابِ الكبير. سَيَقْتادُونَنا إلَيْها كما لَوْ كُنّا أُوديبَيْنِ أخِيرَيْنِ لِيُلَقّنونا المَعْرِفَةَ. دَليلُنا أعْمَى بَصيرٌ. لا يتكلَّفُ بالمَهامّ القَذِرة. حتّى إنّهُ سَيَسْمَحُ لنا في الطّريقِ بالذّهابِ إلى المِرْحاض. سيفُكُّ قَيْدَيْنا، ويُبْقي على عصابتَيْنا. سيُساعِدُنا على الجلوس فَوْقَ الثَّقْب، وتَصْويب دفْقَة بولنا. وسيكونُ لَهُ أنْ يتباهَى في قرارةِ نَفسِه بأنّه ممرضُ تِلْكَ الأمكنة.

سَواءٌ توَقّفْنا للتّبَوُّلِ أمْ لا، فالمَصِيرُ مَحتومٌ. سَيَجْعلُونَنا نَلُفُّ ونَدُورُ، ونَهْبِطُ أدْراجاً، ونَرْتَقِي أُخْرى، وسيدفعونَ باباً ويَدْفَعُوننا. الحلبةُ ليستْ جرداء. ثمّة مصاطِب ومُعدّات: دستٌ، مَجْثَمُ بَبّغاءٍ، حِبالٌ، قَناني فارغة، إطاراتٌ مطّاطية مستعملة. أشياء تمّت مُشاهدتها في الحلم أو في الواقع، لكنّنا نحرزها، ونحسّ بها عبر إشعاعها. حرارةٌ نَتِنةٌ، ولزوجةٌ باردةٌ. مثل إحساس المرء حينما يُدْخِلُ رأسه في مثانة خروفٍ ذُبِحَ لِتوّه. الجزّارونَ الآليون هُنا. يقفون أمامنا في صَف شَرَفي. نَمُرُّ تَحْتَ وابِلٍ من الصّفعاتِ واللّكمات. لكنّنا نُلْفِي هذا أقَلَّ رَهْبةً من الأسئلة الّتي لن يتأخّروا في طرْحها علينا. الأسئلة التي لن يتركوا لنا في الوهلة الأولى وَقْتَ التفكير فيها أو الإجابة عنها. سيتكفّلُون بالتّعليق نِيابةً عنّا. «كلّما أمْعَنّا في سَحْقِ حبّاتِ الكمون، زادتْ رائحتُها تَضَوُّعاً». ودُونَ إبْطاءٍ، يشرعون في تطبيق حِكْمَةِ

المَثَل. يذرّون كمون كَيْنُونَتِنا في مِدَق. والجزّارُون الآليون يسحقونه. رَحى صخريةٌ، طاحونَةٌ مائيةٌ، طاحونة كهربائيةٌ إلى أنْ تضيعَ معالِمُ صُراخنا. صُراخُنا، صُراخ الدّابَّةِ الإنْسانية، اللاَّ يُحْتَمل واللاَّ يَنْتَهِي.

ألَمٌ آخَرُ ذاكَ الّذي سَيُوقِظُنا. ألَمُ الجَسَدِ الّذي لَمْ يَعُدْ يُعاني في نَظَرِ الآخَر، ولكن لأجْلِ ذاته. لقد أعادونا إذن إلى بِداية المتاهة، ورَمَوْنا مثل كيسٍ من البطاطس الرّخوة. ماذا قُلْنا أثناء هذياننا؟ ومتى مَوْعِدُ الفُسْحَةِ المُقْبِلة؟ هذيانٌ من أجْلِ الهذيان، ونحن نُحاوِل أنْ نَتَعقَّل، ونَفْهم، ونرتقب، نحاول أن نُلْقِيَ بأنفسنا إلى ما وراء هذا الماوراء. الشجرة الأولى الّتي سَنُلاقيها كصديقةٍ قديمةٍ. يَدُ الحبيب المفتوحة لكي نَمْلأَ بها يَدَنا، والانقلاب الكبير الذي ستتهاوى خلاله قِلاعٌ جديدةٌ بمعجزةِ الطَّيبوبة الإنسانية وحدها. قوس قُزح الأُخوّة الذي سيرتفع من الأفق إلى الأفق مثل حزام فاطمة الزّهراء. آهٍ أيتها الحُرّية، يا لَسَكْرتِكِ، أيتها المُتَملقَةُ القاسية!

يومان كافيان لهذه الأبدية.

كلّا، ليس الأمْرُ على هذا النّحو. لا بُدَّ أنّ ذاكرتنا خدعتْنا. كيف يمكننا الانخراط في هذه الدّيمومة التي تتوقّفُ عِنْد الشّهادة؟ الشّهادة البئيسة الّتي لم يَعُدْ أحَدٌ يرغب فيها، لأنّ ثَمّة الكثير من القضايا في أرجاء العالم، مجاعات، فيضانات، زلازل، مذابح الأطفال. لا يمكن تتبُّع كُلِّ شيء. توزيع العطايا في كلّ مكان. وأنا، أنا، هل يعطونني شيئاً؟

سأمسكُ بيدك في هذه الحركة الطُّقوسية، سَنُوائِمُ خطوط حياتنا، ومزاجنا، وحظّنا. سنزيدُ عدد أطفالِنا. وبِمِعْوَل الحُبّ هذا، سَنَحْفِر الصَّخْر. سنُلاقي الصُّلْبَ والهشّ، الجافَّ والرَّطْب. سنزحف داخل النَّفق المفتوح على ليل حُدوسنا المُشْبَع بالهواء. سيحدث في عُروقنا ما يُشْبِه ارتعاش الرّبيع. سيعودُ الهُتاف إلى حَلْقنا المسدود بأعلى أنواع الصّمت. وحالما يُصافحُ أوّلُ شُعاع حَدَقاتِنا، سَنُعاوِدُ الكلام. أجَلْ، سنَعود كائِنَيْنِ مُتَكَلِّمَيْنِ كما كنّا قَبْلَ قَرْنَيْن عندما انقلب العالَمُ القديم. أتذكرين؟ كُنّا وسط هذا الشّعب الذي كان يتكوّن، والّذي جعل من التكوين عملاً إنسانياً. كانتْ بِضْعُ أفكارٍ نُورانيةٍ كافيةً لكي يتحوّل الحَشْدُ - المُنْبثق من العشيرة - إلى شعب - هذه الكلمة المُبْعَدة في أيّامنا هذه. كيف وجَدْنا نَفْسَيْنا هُناك، في السّاعة الموعودة، وسط ذلك الشّعب الّذي كنّا نكادُ نفهم لُغَتَه؟ هذا ما يَعْسُرُ عليّ تفسيره إلى اليوم. ينبغي التّسليمُ بأنّنا كنّا قد صِرْنا مُتنقلَيْن كُليّي الحضور أو سندبادَيْن جنحَتْ سفينتهما إلى ساحل مجهول وقرّرا المُضِيَّ بعيداً في استكشاف بَلَدٍ لاح لهما في الوهلة الأولى مليئاً بالغموض. لكن ربّما تكون ذاكرتنا تخدعُنا مرّةً أخرى داخل هذا الكهف المحمول فوق بساطٍ طائر، مُتحرراً من عراقيل الأرض وتاريخها. هناك حيث تكتفي هتافاتُ الأمس بالعبور، وتمرُّ الظلالُ دون انقطاع، وحيث التفَّ ثانيةً، بفعل السحْر، خيطُ آريان الماهرة حتّى يمتدَّ بَحْثُنا حسب هواه ويَغْدُوَ بدوره تَدْشِينياً.

باريس متمّردة! قصيدة على الشفاه. قَصيدَة عُنْفٍ وحُب. مسقيةٌ بالتّسغ والدّم. شجرةٌ مُزْنَجَّةٌ بسلالَةٍ من العبيد الرّائعين، سبارطاكوس. قرامطة الفُرات والبَحْرَين. كوكبةُ نجومٍ متمرّدة تَلْمَعُ وتخبو على امتداد القرون. قصيدةٌ سِريَّةٌ. ذلك أنّهُ

لا تُوجَدُ كلماتٌ لِقَوْلِ
العَيْنِ الثّالِثةِ المفتوحَةِ
من الأحْشَاءِ الكَوْنيَّةِ لِلأرْضْ
زَمْجرةِ القُبورِ
عِنْدَ احْتِراقِ الأكْفانْ
نِساءٌ ذُكورياتُ الصُّراخِ
رجالٌ مَوْشومُونَ
أبْناءُ سِفَاحٍ طالِعونَ مِنَ الغَبَشِ القَدِيمْ
واقِفُونَ
عند مُلْتَقى الأمْواجِ
المَهْووسةِ بالآمالْ
لقَدْ انْتَبَذُوا فَأسَ الحُب
وقطعوا عراقيبَ
الأفْرَاسِ الطّاغِيَةْ
وفي باقاتٍ جَمَعُوا
وُرودَ الدَّمِ الّتي تَتَعذَّرُ تَسْمِيتُها
ها هُمْ يَسُوقونَ
بَيْنَ أحْداقِ الذئابِ
قَطيعَ الأحلامِ المُجْهَضَةِ الهَشّ
وجَلاجِلُهم، جَلاجِلُ كاتدرائياتٍ مُحَوَّلَةٍ لأغْراض أخْرَى
تَدُقّ ناقوسَ تكوينٍ آخَرْ
هكذَا
سيكونُ الخَلْقُ حُرّاً
في فَمِ الآلِهَةِ الّتي لا ضَغينَةَ لَها
ومِنْ باسْتِيل إلَى باسْتِيل
يُذيبونَ قُضْبانَ العالَمِ القديمِ،
والأيّامِ السَّيئَةْ
يَحْفُرُونَ أحاديدَ الأفقِ
لِيَزْرعُوهَا بِنَغَفاتِ
البُذورِ المُتَمَردةْ
ثُمَّ يَلْتَفِتُونَ

وَيَنظُرونَ إِلى عَملِ حُمْقِهِم الشّافي
ويَقُولونَ «هَذا جَيِّدْ»
كلاّ، لا تُوجَدُ كَلِماتٌ
لِلتَّعْبيرِ
عَنْ فَخْرِ كينونَةِ الإنْسانْ

مُحَمَّلَيْنِ بِهَذه الرسالَة، كانَ لا بُدَّ اَنْ نغادِر باريس. لنستأنِفَ طَوافَنا. عَبَرْنا خلالَهُ تُخوماً عديدةً قبل أن نعود ثانيةً إلى نقطة انْطِلاقنا. لم تَلُحْ لنا الاَرْضُ أبداً صغيرةً إلى ذلك الحَدّ بحيث يمكن احتواؤها في القصيدة المَعِيشَةِ وحدها. لكن أليستْ هذه الأخيرة هي الّتي كانت بالأحْرَى أكبر منها بكثير؟ لذلك، حالما نزلْنا لَفَّنا لَيْلٌ غريبٌ بظلالٍ مُخَدرة. ثم اسْتَيقظنا حيث نَحْنُ، هَرِمَيْن بَعْدَ أن كنّا قد استعدنا شبابنا. تلاشى الهُتاف ليحل محلّه تَدَفُّقٌ عنيدٌ كما لو كان صادراً عن شلاّلٍ يوحي لنا هديره السَّحِيق بأنّه نازلٌ ليس من أعلى جُرُفٍ مّا بل مِنْ أقاصي السّماء.

صَحَوْنا مِنْ غشيتنا فالتبس معنى ذلك الصّعود اللّيلي. كيف يُمكننا أن نَميز في هذا الأمر بِرُمّته نَصِيبَ الحُلُم من نصيب الواقع؟ ولماذا تعلّق الاَمْرُ بقصيدةٍ مّا، أليستْ مِثْلَ كُل القصائد؟ هشّة وعابرة، يتغيّر معناها بِتَغيُّر الأيدي ،وتصطبغ بِلَوْن ورائحة كُلِ أرضٍ، كل حقبةٍ تجنحُ إليها مثل قنّينةٍ مرمية في البَحْر. في الواقع، وكما لاحظتِ، النّقاشُ قديم جدّاً. بدأناه منذ سقوطنا قَبْلَ اَلْفَيْ عام، ربّما بوقتٍ أكثر أو أقلّ، وفي كلّ الأحوال منذ اللّحظة الّتي توقّفْنا فيها عن الحساب. أجل، ها نحن نلمس البدايات.

سأُمسك بِيَدكِ. وسيمرُّ تيّار التّعرُّف قويّاً بيننا. ستلوح نجمَةٌ مَوْسومَةٌ. على جَبينكِ اَمْ جَبيني؟ سينهمر شَعرانا الطّويلان على كتِفَيْنا. وستكون الصَّحْراءُ هي أوّل مكانٍ تطرقُهُ خُطانا. سنسيرُ داخل متاهة الكثبان الرّملية، والحصى المحفور بالرّيح والمُخَرَّم بالشمس. سيُنْسينا الحَجَرُ المَشْدُودُ حول البطن الجوعَ، لكنّه لن يُنْسِيَنا العطش. سنطوفُ بالواحات والقوافل. سنبتعدُ عن النّاس لكي نلتحق بهم على نَحْوٍ أفضل. ستكون المغارات (في هذا الأوان!) ملاذَنا الوحيد. هكذا سنهيم على وجْهَيْنا إلى حين انكشاف الكلمة. سيأزف أوانها مسبوقاً بعلاماتٍ مُتَوقَّعة وغير مُتوقَّعة. ستلمع نجمةٌ جديدةٌ في السّماء التي ستتمزّق وتُمطر وابِلاً من النّيازك. ستنطق الحيوانات. وتتحرّكُ الجِبال. وستسحبُ غابَةٌ بأكملها جُذورها من الأرض وتمضي للغرق في عرض البَحْر. وسيتعاقب الأنبياء. رُسُل الكُلّ الاَعْظَم أو تجسُّداته. ذوو معجزاتٍ أو شافُونَ بالكلام، احترابيون أو شهداء. وديعون أو متوعدون باللّعنَات. وستخضَعُ الشّعوبُ واحداً تِلْو الآخر، بقلبٍ مفتوحٍ، مُطهَّرٍ من دَمِه الاسْوَد، ومُلْتَئِمٍ بمُلامَسةٍ واحدةٍ بعدما تلقّى بذرة اللُّغز التي لا تفنى.

سنخضع مثل الجميع، بعد أن تغلّبنا على شكوكنا. سنُبارح الصّحراء أخيراً. سنقتطع عصا الحُجّاج ونمضي لإشاعة النّبإ السعيد. سنُلاقي الجُحود. ونتحمّلُ السُّخرية والمهانة. سيرموننا بالحجارة. ويُلقون القاذوراتِ على رأسَيْنا. لكنّنا سنُقاوِمُ ونغزو بعض القُلوب تَدْريجياً. بدءاً بقُلوب النّساء، والأطفال، والمظلومين. سيتردّد صدى الرّسالة في العالم قاطبةً. بفضل بِضْع كلماتٍ، بضعة أفعال، دون سِلاحٍ أو عُدَّة، سنُساهِمُ في الهِداية التّاسعة. سينبت الحبُّ حتّى في الحصَى، وعلى ذُرى الأمواج، وفي حُمَمِ البراكين الكبريتية. لن يعود الموتُ، موتُنا، عذاباً. بالعكس، سنهرع لملاقاته كما لو كان مَوْعِداً غرامِياً هادِئاً ودون حُمّى. سنُغْمِضُ أعْيُنَنا فيخرجُ الرَّمَقُ الأخير.

لكن ما الّذي حدث حتّى صار هذا الحُلُمُ بدوره قاتِماً، مُجْهَضاً؟ هل كان الصَّدعُ فينا أم في الرّسالة؟ ما مَصْدَرُ الأذَى؟ الأذى كان لا بُدّ من الإقرار به والاعتراف بوجوده فينا بعدما اعتقدنا طويلاً أنّه مُنْحَصِرٌ في الآخرين. كيف غدا الإنسانُ عَدُوًّا للإنسان؟ مَنْ زَرع الكراهية في حَقْل الخرائب هذا الّذي يُغَطّي الآن الأرض من أقصاها إلى أقصاها؟ مَنِ اقترفَتْ يداهُ هذا اللّيلَ المُتوحش؟ وكم زمن ديمومته حَقًّا؟

سأُمْسكُ بِيَدكِ ونُبارِحُ الكَهْفَ. الآن وقد انتعشَتْ ذاكِرَتُنا، عُدنا جَدِيدَيْنِ مثلما ولدتْنا أُمّنا. تَغلّبْنا على النسيان والخوف من الذّكرى. وإذا كُنّا نجهل وِجْهتنا، فنحنُ نعرف على الأقلّ المكان الذي جِئنا منه. كما نعرف الثّمن الذي دفعناه لكي نكون، بعد خروجنا من المتاهة، في ملتقى الاختبارات الإنسانية.

اَمْسِكي بِيَدي، أرجوكِ، وبوحي لي أخيراً بِاسْمكِ. ولْتكُوني نَدِيمَتي في هذا الاحتفال الصّافي بالحياة.